شعر الصعاليك والثنائية المضادة

(دراسة تحليلية نقدية)

د.مثيبة ماطر الهذلي

أستاذ مساعد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الباحة

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين الذي علم الإنسان مالم يعلم، والصلاة والسلام على أفصح العرب لسانا، وأصدقهم بيانا، وبعد :

فإن هذه الدراسة تُعنى بالجانبين الذاتي والموضوعي في شعر الصعاليك، فمحورها شخصية الصعلوك وشعره؛ حيث تسعى الدراسة إلى تتبع تجليات الذات وإبرازها في الموضوعات الشعرية، وفي تعبير الشاعر عن معاناته وعواطفه، وتصويره انعكاس وقع الحياة عليه من الناحية النفسية .

ويُعد من أبرز ما عالجه شعر الصعاليك هموم الصعلوك وتشرده وتصعلكه وألمه ؛ لبعده عن قبيلته، والتي كان يعيش معها حياة طبيعية هانئة، يقول يوسف خليف : " فليس من شك أن هؤلاء الشعراء الصعاليك مرت بهم في حياتهم فترات عاشوا فيها مع قبائلهم حياة قبلية متوافقة توافقاً اجتماعياً، وهي تلك الفترات التي سبقتهم حياتهم المتصعلكة " [1]؛ فكانت العنصرية القبلية أحد الأسباب المهمة في إبعاده أو خلعه، بالإضافة إلى أسباب سياسية، وأخرى اقتصادية ؛ ومن ثم كانت انتفاضة الصعلوك لنفسه وانتصاره لغيره ممن هم في مثل تصعلكه وهمه؛ دافعاً عن إنسانيته وعن هموم أمثاله بسيفه ولسانه .

ويتجلى في هذه الدراسة تعبير الصعلوك عن حضوره في الحياة وحقه في الإنتماء إلى قبيلته وأسرته الإنسانية الواسعة الجديدة التي ينتسب إليها هو وغيره من الصعاليك، كما يبرز فيها مجال القص والحوار في عرض ما يريد الترجمة عنه، ويشمل تعبيره عن الآخر الذي هو صورة عن ذاته .

وعلى الرغم من أن الدراسات التي تناولت شعر الصعاليك تناولته من جهته الموضوعية والفنية وخصائصه المنهجية، والأخلاقيات التي تضمنها شعرهم، فإن تناولها للجانب الذاتي في شعرهم كان صورا متناثرة تعرض من خلال موضوعات أخرى تناولت بعض أشعارهم من خلال الأغراض وأساليب الأداء، ولهذا يحاول هذا البحث أن يتناول الذاتية والموضوعية في شعر الصعاليك[1] .

ونظرا لطبيعة موضوع هذه الدراسة ومقاصدها المحددة، فإنها ستعتمد أساسا المنهج الوصفي لنماذج الظاهرة، ودراستها دراسة تحليلية مع ربط النص بالذات المنتجة له .

وقد خص النقاد العصر الجاهلي بكثير من الدراسات والبحوث التي تتناول القيم الفنية والموضوعية في شعره ونثره، بيد أن مجال البحث فيه مازال مفتوحا أمام الدارسين ؛ فقد أمتاز هذا العصر الأدبي بالأصالة الفكرية، وبالفنية الشعرية الفطرية، كذلك تميزت قصائده بفنيات اختلفت عن سواها من العصور الأدبية ؛ فالقصيدة تميزت بنمط معين من الكتابة ظلت رسما للشعراء على امتداد العصور[2].

ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث التي اقتضت طبيعة موضوعه أن ينهض على ثلاثة مباحث : الأول : يتناول الاتجاه الذاتي في شعر الصعاليك، وأما الثاني، فيعرض للاتجاه الموضوعي، ويأتي الثالث، ليختص بالجانب التطبيقي .

وآمل أن يكون هذا البحث قد أسهم في إضاءة جانب من جوانب شعر الصعاليك الذي أثرى القصيدة العربية التراثية ؛ إذ لا يتسنى لدراسة واحدة أن تحيط بكل أبعاده الخصبة، وهو يمهد السبيل لدراسات نقدية أخرى ترصد كل جانب من جوانبه المتميزة والخصبة .

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل .

مدخل:

نشأ في هذه البيئة العربية ذات الشعرية الفطرية شعراء تميزت أشعارهم عن سائر شعراء العصر، وكان شعرهم تعبيرا عن ظاهرة في العصر الجاهلي عُرفت بظاهرة الصعلكة، وهم شعراء الصعاليك، والصعلكة لا تعني مجرد قطع الطريق والسلب بقدر ما تعني الفروسية والشجاعة والثورة على مجتمعاتهم القبلية والتمرد على القيم القبلية الجائرة .

وشعراء الصعاليك هم فئة من الفقراء اتخذوا لأنفسهم طريقة خاصة في حياتهم، فسلكوا مسلكا له سمات معينة، أهمها : الأنفة والإباء والترفع عن الصغائر والدنايا وحقير الأعمال، معتمدين في حياتهم على القوة والبطش وانتهاز الفرص وخفة الحركة وسرعة الجري والنهب والفتك بالأعداء مع الحرص على البر والاهتمام بالمرضى والضعفاء والمحتاجين .

وكلمة صعلوك في اللغة تعني : الفقير الذي لا مال له، أما الصعاليك في التاريخ الأدبي فهم جماعة من شواذ العرب كانوا يغيرون على البدو والحضر فيسرعون في النهب ؛ لذلك يتردد في شعرهم صيحات الجزع والفقر والثورة، ويمتازون بالشجاعة والصبر وسرعة العدو وأغلب موضوعات شعرهم تدور حول سرعة عدوهم، وحول إغاراتهم وغزواتهم، وكثيرا ما كانوا يفضلون وحوش الصحراء وحيواناتها على أهلهم ؛ فهم يرون أن الحيوانات تحمل من العاطفة أكثر من البشر وذلك نتاج طبعي لما عانت منه هذه الفئة التي عاشرت الحيوانات واستأنست بها فوصفوها في أشعارهم وعرفوا مسالكها بدقة[1].

وفي تعريف الصعاليك أنهم جماعة من اللصوص انتشروا في الجزيرة العربية بالذات المناطق الجبلية والصحاري الواسعة والأراضي الوعرة التي تكون فيها الحياة أصعب من غيرها، كانوا قد نبذتهم قبائلهم إما لأنهم أبناء إماء أو إنهم أتوا (بطرق) تخالف عادات وتقاليد القبيلة، أو لأنهم كانوا يعرضون القبيلة للأخطار الصعبة مواجهتها [2].

كما يذكر أن لهم قصصاً من قبيل الأساطير، فمثلا تأبط شرا كان له قصة مع " الغول "، يقول في بعض قصصه معها [3]:

أنا الذي نكح الغيلان في بلدٍ ماطلّ فيه سماكيّ ولا جادا

في حيث لا يغمت الغادي عمايتة ولا الظليم به يبغي تهبّادا

وقصة تأبط شرا مع الغول التي سدت عليه طريقه قصة معروفة حيث أخذ يخاطبها ويفهمها أنه أخو سفر وأن كليهما تعب، وطلب منها أن تخلي له مكانه أي تبعد عن طريقه، لكنها فاجأته بهجومها عليه بقوة فضربها بسيفه بلا خوف حتى خرّت ميتة [1].

وحين نرجع إلى أخبار الصعاليك نجدهم أنهم كانوا أفقر الناس، فكل صعلوك فقير حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك، وقد كانوا يلجأون إليه كلما ضاقت بهم السبل ؛ ليجدوا لهم مأوى حتى يستغنوا[2] عانى من الفقر والحاجة [3]، يقول تأبط شرا [4]:

ذريني للغنى أسعى، فإني رأيت الناس شرهم الفقير

نتج عن الظروف التي عاناها الصعاليك أن عاشوا خارج قبائلهم وقطعوا كل أمل بالعدالة وقطعوا كل صلة مع أهلهم وقبيلتهم، وقد كانت القسوة والظلم سببا في هذا البعد، وكان سببا للحقد على القبيلة وأفرادها وعلى أصحاب الثروة والمال، وهو ماجعلهم يقطعون الطريق ويأخذون من قوافل التجارة لأصحاب التجارة ليدفعوا بها للفقراء والمساكين، وهذا ما يمكن تسميته بالاتجاهات التنويرية أي التي تدعو إلى معارضة بعض القيم والعادات والمعتقدات الجاهلية، أو أنها تدعو للإصلاح والعدل والتعقل والحض على التقيد بالقيم سواء في التعامل أم في معالجة تحديات الواقع وإصلاح ما هو فاسد وجائر والتي تأخذ أحيانا شكل تساؤلات وتأملات فكرية حول جدوى الحياة ومغزاها، وتتمثل في المعارضة العنيفة التي فجرها ممثلوها في وجه العسف والاستغلال والظلم والقهر الاجتماعي، والتي أخذت شكل التمرد والثورة على المجتمع ومحاولة تقويض بنائه .

فلذلك فإن اتجاه الشعراء الصعاليك كان ذا نزعة إنسانية رغم ما عرف عن العصر الجاهلي من جهل وقسوة ونزاعات قبلية وحروب ثأرية لا تكاد تنتهي، و احتكام إلى الأهواء لا إلى العقل ولا إلى القوة والعدل، إلا أن عرب الجاهلية تميزوا بفضائل عليا من انتصار للحق والحكمة والحلم ، فالصعاليك مثلا كانوا يعطفون على الفقراء

والمساكين -بطبيعة الحال- كما أن لهم مغازي يوزعون غنائمها على ذوي الحاجة الماسة، فأغلب غزواتهم في مواجهة الأغنياء والبخلاء [1].

المبحث الأول : الاتجاه الذاتي :

وفي حديث عن القيم الفنية في هذا الشعر يجد المتأمل أنه لا ينفصل عما كانت عليه الفنية الشعرية التي تميز بها الشعر في العصر الجاهلي، إلا أن التوجه والمقصد من شعرهم يختلف عن شعراء العصر، فإن كان الشعراء تحدثوا عن الطبيعة ووصفوها ؛ فشعر الصعاليك أصبغ على الطبيعة ذاته وهو يبثها مكنوناته .

أما أسلوبهم فتميز بالسهولة في لغتهم الشعرية، وبالحديث عن الذات الفردية مقابل القبيلة، والذات الجماعية مقابل القبيلة، والذات الجماعية مع أفراد هذه الجماعة والإنسانية عامة .

ومن النماذج التي تتجلى فيها الذاتية :

قول تأبط شرا [2]:

إذا المرء لم يحتل، وقد جد جده أضاع وقاسى أمره وهو مدبر

ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلا بة الأمر إلا وهو للأمر مبصر

وقوله أيضا [3] :

يا عيد مالك من شوق وإيراق ومرِّ طيف على الأهوال طرّاق

يمشي على الأين والحيات محتفيا نفسي فدائك من ساري على ساق

وهذه بعض النماذج الشعرية من بين كثير من النماذج التي تظهر فيها سمة الذاتية لديهم بالإضافة لما سنورده في لامية الشنفرى كدراسة نموذج .

وحين ننظر للمعنى العام في قول تأبط شرا يتضح أنه يتحدث عن حياة الصعلوك، وهي قضية عامة، ويشتكي عن هم عام يشمل فئة معينة من البشر هم الصعاليك أي هم أمثاله هذا في المعنى العام، لكن نجد أن ذات الشاعر هي التي تتحدث عن قلق وهم وحزن مما يصيبها خاصة في موقف معين في الحياة، وهو السرى في الليل، ومواجهته كل ليلة لألوان من الأهوال، ورغم ذلك كانت المواجهة مع الليل ليست أصعب من معاناته، وهذا هم الصعلوك وهو أن يصور هم الجماعة من خلال همه، ومشاكلهم من خلال ذاته ومن خلال تجاربه الذاتية .

ويتضح إحساس الشاعر بالآخر حين يدعو لفضائل أخلاقية كالمخاطرة بالنفس من أجل الغنيمة، وإكرام الضيف، وفي ذلك يقول عروة الصعاليك [1]:

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة إن القعود مع العيال قبيح

ويقول أيضا [2]:

فراشي فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهني عنه غزال مقن

ويقول كذلك [3] :

لحا الله صعلوكا إذا جن ليله مصافي المشاش آلفا كل مجزر

فالشاعر يرى أن القعود عن العمل مذمة، والأفضل الاجتهاد في طلب الغنيمة التي هي من نصيب ضيف يحل عليه، فكل ما لدية هو ملك للضيف، فهو كريم مقدام، ثم يلتفت إلى الحديث عن الغائب وعن صنف من الصعاليك قليل الهمة يعتمد على الآخر حتى في لقمة عيشه، وفي النموذج الثالث كان حديث الشاعر بضمير الغائب يوحي أنه ينفي أن تكون هذه الصفات من صفات الصعاليك أصلا، وكأنه يقول إن هذا الصعلوك قليل الهمة غائب عنا ليس حاضرا بيننا، أي : أنه لا ينتمي لهذه الفئة .

وتحمل قصائد شعراء الصعاليك في طياتها هموم المتشرد المتصعلك الفقير الذي عانى من نبذ عشيرته له من ناحية، وقد كان هذا الفقر - كما يقول يوسف خليف - بسبب البذل والكرم والإسراف، ومن ناحية أخرى نهوضه

بالحقوق الواجبة عليه إزاء المحتاجين أمثالهم من الذين لا يستطيعون الحصول على رزقهم من الفقراء، كبذل أنفسهم للدفاع عنهم والأخذ بحقوقهم على قدر من القوة والشجاعة التي لا تعرف الخوف من الموت، بل وترضى به حقيقة مسلما بها، والأمر الأهم لديهم هو الذكر الطيب [1] ؛ ولذلك يقول عروة بن الورد[2]:

أحاديث تبقى والفتى غير خال إذا هو أمسى هامة فوق صير

نجد تفرد الصعلوك بصفات وصف نفسه بها، واعتد بها دون غيره، وعانى الألم بمفرده، وغيره مما سبق .

إذن الذاتية عند الصعاليك هي المعرفة المتعلقة باهتمام الذات لديهم من البحث، و هي عن الهوية والشخصية والقانون والقيم الأخلاقية كنتيجة للظروف التي مرّ بها من قبل قبائلهم و ومن ثم تلك التجارب التي عايشها في المحيط الخارجي للقبيلة، وقد استقت الذات لديهم_أوصافها من تأثير الشعور أو التفكير عن طريق العقل الذي له السيادة الحرة التامة في تصرفاتهم بدون أي تقيد، فهي ردة فعل من مزيج حياته وتجاربه .

الاتجاه الموضوعي :

تهدف الموضوعية غالبا للوصول إلى المثالية عن طريق الحفاظ على مبادئها الرئيسية، التي يمكن أن تحقق أهدافها كوحدة الوجود و النظام ، فهي تدافع عن هذه الفكرة لأنها الحجر الأساسي في بنائها الفكري، وهذه القضايا الموضوعية التي عالجها شعر الصعاليك تتمثل في صورة جوانب الحياة الاقتصادية والعادات الاجتماعية والسياسية أيضا، وقد كان الشاعر الصعلوك يرسم الحياة بواقعيتها معبرا عن ذلك بالسرد القصصي والحوار، والحديث عن المغامرات التي وصفها الشاعر بواقعية، ووصفها تفصيليا يعبر عما كانوا يعانونه في واقعهم .

يقول السليك مفتخرا بنفسه [3]:

وعاشية راحت بطانا ذعرتها بسوط قتيل وسطها يتسيف

كأن عليه لون برد محبر إذا ما أتاه صارم يتلهف

فبات له أهل خلاء فناؤهم ومرت بهم طير فلم يتعيفوا

وباتوا يظنون الظنون، وصحبتي إذا ماعلوا نشزا أهلوا وأوجفوا

ومانلتها حتى تصعلكت حقبة وكدت لأسباب المنية أعرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرني إذا قمت تغشاني ظلال فأسدف

يصور الشاعر هنا طرده لإبل بعد أن قتل صاحبها في أحد الغزوات التي خرج لها مع أصحابه، وكثيرا ما يمر الصعلوك بمواقف تشبه العقدة من القصة، وسرعان ما تنفك العقدة ويفخر الصعلوك متباهيا بنفسه، ولكن السؤال هل الفخر هنا من أجل الفخر[1] .

عادة ما يفخر الشاعر ليزيد قيمة نفسه بين قومه، ويظهر شجاعته وقبيلته التي ينتمي إليها، لكن الحال هنا للصعلوك مختلف تماما، حيث لا مدعاة للفخر بين القبيلة ؛ لأنه خارج نظام القبيلة التي من المفترض أن تذكر فخره وأمجاده، وإذا أمعنا النظر في مثل هذه النماذج الشعرية التي يفتخر الشاعر الصعلوك بنفسه فيها، وبين فخر الشاعر الجاهلي نجد أن الفخر لتقوية النفس مرة بعد مرة، حيث إن الصعلوك مهما تميز بصفات خارقة وشجاعة لا مثيل لها تظل عقدة انشقاقه عن قبيلته سواء هي التي نبذته أم هو الذي اختار ذلك، تظل هذه العقدة تلازمه وتجلب له المتاعب، ويقول يوسف خليف أنهم بذلك يعللون لمغامراتهم الدامية التي وهبوا لها حياتهم، وأن يفسروا الدوافع التي دفعتهم إلى تلك الثورة التي أشعلوها في وجه مجتمعهم [2]، ويمثل ذلك قول قيس بن الحداديه [3]:

أنا الذي تخلعه مواليه وكلهم بعد الصفا قاليه

وقول الهذلي أيضا [4]:

وذكرت أهلي بالعـــــرا ء وحاجة الشُّعبِ التـــــوالب

وعلى الرغم من ذلك فإن الصعلوك يتذكر أهله وأناسه الذين يشتاق إليهم، مع حاجتهم الماسة له، وهذا ما يزيد ألمه ومعاناته،وقد يجعله أكثر إقداما على ما يفعله من نهب وسلب حتى وإن خطأته القبيلة، وتبرأت منه، ولكنه

رغم ذلك لا ينسى جمال موطنه ومكان أمنه وأمانه، فإنه يعاني شدة الحر في الصحراء، ومع ذلك لا يبالي به، طالما أنه اقترب من الأمن والأمان، ولاحت لناظريه منازل أهله في السلامة، هنا وكأنه لا يريد لصورة التشاؤمية أن تمحى ملامحها من لوحته الفنية، ودون أن يحتفل بالوصول سالما ويحدثنا عن جمال موطنه ..." [1].

ولذلك يقول السليك بن السلكه [2] :

من مبلغٍ جذمى بأني مقتول

وتشكل الشجاعة لدى الصعلوك زاده في صعلكته، وهي محور فخره أيضا، وكأن الصعلكه قائمة أساسا على الإقدام والشجاعة، ففي لحظاته الأخيرة لا يرضى أن يكون كغيره، وأن تُدفن جثته كغيره من الأموات، فيؤثر أن تأكله أم عامر (الضبع) ولا يُدفن ، هذه الفكرة كما تبدو من حالة الموت الأخيرة، وطلب الشاعر الغريب من أعدائه، والأغرب من ذلك فإن هذا ليس اعتدادا محضا يحقق غايته من الفخر، وإنما هو نوع من الإرهاب الذي يتخذ سبيله الصعلوك ليخوف أعداءه منه، وليعزز ثقته بنفسه في أصعب اللحظات، يحاول الصعلوك أن يزيد من همته ومن حماسه بتفاعله مع الحياة كلها بطبيعتها وحيواناتها ووحوشها بالأخص، فهو يساعد نفسه على التعايش مع واقعه بكل السبل حتى لو بالغ في فخره، وبشر أم عامر بجثته :

يقول تأبط شرا [3]:

فلا تقبروني إن قبري محـــــــــــــــــــــرم عليكم ولكن ابشري أم عامر

إذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثري وغودر عند الملتقى ثَم سائري

وفي مقابل ذلك نجد الشاعر تأبط شرا ويمتاز شعره بذكر المغامرات وسرد القصص التي تتفاوت بين الحقيقة والخيال، وبخاصة قصصه مع الغول، وأكثر شعره في الحماسة والفخر، وذكر المغامرات، يقول في بيتين من قصيدته (يا عيد مالك من شوق وإيراق) [4] :

وليلة صاحوا وأغروا بيس راعهم بالعيكتين لدى معدى ابن براق

كأنما حثحثوا حصا قوادمه أو أم خشف بذي شث وطباق

الشاعر في هذين البيتين يصف مغامرة من مغامراته في إحدى الليالي لفك أسره، وهنا يمتدح أصدقاءه الذين كانوا معه وهم الشنفرى وابن براق – كما ورد في القصة –

ويقول في القصيدة نفسها :

إني إذا خلة ضنت بنائلها وأمسكت بضعيف الوصل أحذاق

نجوت يوم نجائي من بجيلة إذ ألقيت ليلة خبت الرهط أوراقي

ويرفض الشاعر هنا الصداقة التي لا تلتزم بمبادءها وموجباتها كما ينبغي، فهو برئ منها .

ويرسم تأبط شرا صورة للصعلوك المثالي الذي يبجله ويرافقه، فيقول :

لكنما عَوَلي إن كنت ذا عول على بصير بكسب الحمد سباق

سباق غايات مجد في عشيرته مرجع الصوت هدأ بين أرفاق

حمال ألوية شهّاد أندية قوال محكمة جواب آفاق

فذاك همي وغزوي أستغيث به إذا أستغيث بضامي الرأس نفاق

يقول أهلكت مالا لو قنعت به من ثوب صدق ومن بز واعلاق

فصديقه لابد أن يكون صعلوكاً مثله، وأنه يتصف بهذه الصفات المثالية التي منها : المحامد والزعامة والجرأة في اقتحام الصعوبات والفروسية، وصلابة الرأي، والتردد إلى مجالس العشيرة، فضلاً عن صفة الكرم والجود [1].

وإلى جانب هذا نجد أن الصعلوك تحدث عن الآخرين من خلال حديثه عن ذاته، وقد برزت موضوعية الصعلوك مثلما برزت ذاتيته، وتجلى ذلك في قول عروة [2]:

إذا المرء لم يبعث سواما ولم يُرح عليه وإن تعطف عليه أقاربه

فلَلموت خير للفتى من حياته فقيرا ومن مولى تدبّ عقاربه

فهو يحث على مواصلة الأقارب، والتراحم، فالموت خير للمرء من حياة الفقر والحاجة، فكانت حياتهم أعظم تجربة أنتجت مثل هذه الحكمة .

وبذلك نجد أن الموضوعية تصف الأشياء على ماهيتها، دون أن تتأثر بأي من المصالح أو رغبات النفس ؛ فالموضوعية تؤمن بحقائق قائمة خارج الواقع المادي الملموس لها،مثل الله والسماء والأخلاق والعدالة والحق والخير والشر والجمال والإنسانية .

لقد كانت الموضوعيّة لدى الصعاليك هي رد الوجود إلى الموضوع دون تجاوز للذات، وإذا كانت الذاتية عند الصعلوك ترى أن مقياس الخير والشر يقوم على اعتبارات شخصية ؛ فالموضوعية تحاول أن تصل إلى قواعد عامة يمكن عن طريقها التمييز بين الجميل والقبيح .

المبحث الثالث : الجانب التطبيقي

يتناول هذا المبحث الجانب التطبيقي لشعر الصعلكة ؛ حيث سنلقي الضوء على ذاتية الصعلوك وموضوعيته في معايشته مع حياته الجديدة التي فرضتها عليه الظروف، وقد وقع اختيارنا على لامية الشنفرى ؛ التي تميز أسلوبه الفني بالخشونة اللفظية والتي مثلت اللغة البدوية الجاهلية أصدق تمثيل، كذلك القوة التعبيرية التي تجعل أسلوبه أسلوبا محكما لارخاوة فيه، كما يمتاز بجانب من صدق التصوير والصراحة في النقل عن الحياة التي عاشها [1]، وبذلك تكون نموذجا تطبيقيا صادقاً لهذا اللون من الشعر :

يقول الشنفرى:

أقيموا بني أمي صدور مطيكمُ فإني إلى قوم سواكم لأميل

يأمر الشاعر عشيرته، وهم (بنو أمه) بالاستعداد للرحيل، ويدل النداء لأقرب الناس له بني أمية على وجود ترابط بينهم وبينه في النسب والمكان، " والشاعر الممتلئ بإحساس القهر والضيم يعوض ذلك ويقابله، بـــ (أنا)

متنفخة تتبدى ثقتها بنفسها من خلال فعل الأمر الذي بدأت به القصيدة (أقيموا) فهذا الأمر دال على اعتداد بالذات " [1]، وأقيموا صدور مطيّكم أي استعدوا واجعلوا صدور مطيّكم موجهة مستعدة للرحيل .

وقد يبدو هنا نوع من التناقض في الظاهر، فهو يأمرهم بأن يجعلوا مطييهم مستعدة للرحيل، وكأنهم سيرحلون معا – وهذا الواضح من الشطر الأول – ثم يلتفت إلى نفسه ويتحدث في الشطر الثاني عن رحلته عنهم من قوله (فإني إلى قوم سواكم لأميل) ويخبرهم أنه يميل إلى قوم سواهم، ولم يحدد هؤلاء القوم وتحدث عنهم بالنكرة ؛ أي : استعدوا للرحيل بعدي ؛ فأنتم لن يطيب لكم البقاء بعد رحيلي عنكم .

يزداد اعتداد الشاعر بنفسه وثقته من ردة فعلهم ؛ فالتناقض واضح في مشاعره تجاههم ؛ إذ إنهم سيغضبونه ويكرهونه، وفي الوقت ذاته يقول إنهم سيحزنون لرحيله بعد بقائهم بعده أو ربما قصد لحاجتهم إليه وإحساسهم بالنقص عندما يرحل، فلن يسرهم البقاء بعده.

فقد حمّت الحاجات والليل مقمر وشُدّت لطيات مطايا وأرْحُل

أي قد قُضيت الحاجات بالليل، ونعته بالمقمر ؛ لأن رحلاتهم في الليل يلزمها أن يكون القمر بدرا يضئ لهم الطريق ؛ فيحتمل المعنى تفسيرين أن وقت الرحيل كان ليلا، أو أنه اتخذ قرار الرحيل في ليلة مقمرة هادئة صافية، وكان ذهنه صافيا كصفاء السماء مع ضوء القمر، فكأنه اهتدى لأمر كان يبحث عنه فصرح بدواعيه ومقصده :

فقد حُمت الحاجاتُ والليل مُقمِر وشُدّت لطيات مطايا وأرْحُل

والمعنى كما قيل في المثل القديم " أمرٌ أُبرم بليل "، أي أن هذا الرحيل دُبر بليل .

وفي الأرض منأى للكريم من الأذى وفيها لمن خاف القِلى مُتَعزَل

إنه يرى في الأرض ومكاناً بعيداً بعيد ومنأى لمن أراد أن يبعد عن الأذى، ولا يتصف بذلك إلا الكريم، والشاعر يمتدح نفسه، ويقول أن الأرض فيها مكان للكريم مثلي إذا أراد أن يبعد عن الأذى، وهل هناك من لا يريد البعد عن الأذى :

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القِلى مُتَعزَل

ومعنى القِلى : أي البغض والكره، أي أنني بت أشعر بالبغض والكره منكم وإن كانوا لم يبدوه، إلا أن الشاعر أحس ذلك ؛ فقرر أن يبتعد :

لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئ سرى راغباً أو راهباً وهو يعقِلُ

ويؤكد الشاعر على المعنى السابق، وهو أن الأرض التي فيها منأى ومعزل عن الأذى، وعن البغض والكره كذلك، فهي أرض لن تضيق على امرئ سواء كان راغباً في الرحيل أم مكرهاً، وهو يعقل هذا الأمر، ويقصد الرحيل، والخائف أي الخائف من تبدل حال ومشاعر أناس تربطهم به صلة وقرابة، ولا يرغب في أن يرى منهم هذا الأمر علانية، فهو يريد الرحيل ويعقل ما نتيجة البقاء بين هؤلاء الناس، وقد تكون النتيجة كرها وبغضا، وقد تكون أكثر من ذلك حرباً أو قتالاً بينه وبينهم :

ولي دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل

بدأ الشاعر يسلي نفسه، ويستمر في أسلوب خطابي لبني أمه، وأخذ يصور الطبيعة، ويذكر الوحش والسباع، ويصبغها بصفات إنسانية كان يتمنى أن تكون في أهله .

ويعد الوحش بالنسبة للشاعر هو الأهل والمستودع للسر، والمفارقة هنا واضحة في مقارنة الشاعر بين بني أمه الذين قطعهم وبين الوحوش التي أصبحت الأهل الذين لا يذيعون سره ولا يخذلونه إذا طلب، وتكمن المفارقة في الفرق بين صفحات البشر وصفات الوحوش،فالعواطف إنما تكون بين بني البشر، وبخاصة الأقربون،كما يقول "بني أمي "،وإنما الوحش يتصف بصفات مناقضة لهذه الصفات . ورغم ذلك كان الوحش بما فيه من الصفات المنفرة والمخيفة أكثر صلة بالشاعر ومراعاة،فكتمان السر والوفاء صفة يمتاز بها القريب والحبيب وذلك ما لم يجده في قرابته وأحبابه من بني أمة .

والشاعر على ما يبدو يعاني حالة من اليأس والتناقض النفسي الذي جعله يرى في الوحش ما افتقده في عشيرته عامة ، ويرى الأمور بخلاف الواقع ؛ فالوحش الضاري أهل له، ومستودع للسر، ومؤتمن عليه .

وابتعاد الشاعر عن قومه كان لأسباب أهمها انتقاصهم لحقه وخذلانه، ويتضح سبب ذلك في قوله (ولا الجاني بما جر يُخذل) بما جر من جريمة على قومه ؛ ومن المفترض منهم ألا يخذلوه، لكن حصل خلاف ما توقع، فالقبيلة لن تستطيع تحمل ديات جرائمه، ولكن هذه الوحوش رغم قسوة معيشتها هي لم تخذله، تتخل عنه كقومه، و وقد يكون لإثارة للوحش تفسير آخر، وهو توافقه النفسي مع صفات هذه الوحوش ؛ لأن الشنفرى " كان إذا أراد

قتل أحدهم قال له : أأطرفك ؟ ثم يرمي عينه " [1]، فهناك رابط بينه وبين عيشة الوحوش نفسيا وفعليا، هو يقتل ويجر جنايات على قومه وهم يعيشون على اصطياد الفرائس و الطرائد.

يقول كلهم قوي شجاع يقصد الوحوش الثلاثة السابقة الذكر يأبى الذل والضيم، لكنني أسبقهم وأشجعهم، وهنا تعلو الذات عند الشاعر ؛ إذ حيث جعل نفسه أشجع من الذئب والنمر والضبع على الاختلاف بين هذه الوحوش في القوة، فإن كانت هناك طريدة فأنا أسبقهم إليها، فهناك هدف مشترك بينه وبين هذه الوحوش، وهو من أسباب اختياره لهم كقوم يعيش معهم بدلا من قومه، وهو مطاردة الفرائس والصيد، وهذا ما يوافقة نفسيا كما سبق أن ذكرنا :

ثم يقول مستطردا في ذكر فضائله :

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

في هذا البعد عن قومه ما يوجبه ؛ ألا وهي الصفات التي تميز بها الشاعر دون غيره، وهو لا يرى أنهم يستحقون بقاءه بينهم، فهو تفرد عن صفات من حوله سواء قومه أو الوحوش بأنه كريم سخي إذا مدت الأيدي إلى الزاد فهو ليس بأعجلهم، ويميز نفسه بسمو لا يفضله فيه غيره، لذلك قرر الرحيل والبعد عنهم، ولأن كانت الوحوش تمتاز بالشجاعة فقد جعل نفسه أشجع منها، وإن كانت الوحوش تطارد الطرائد كان هو الأسبق، ولكن هذا ليس حرصا منه على البحث عن الأكل يقول :

وما ذاك إلا بسطة عن تفضل عليهم وكان الأفضل المتفضل

إذن هنا مفارقة بينه وبين الوحوش في الصفات وهي الفضيلة الأخرى التي يتفرد بها، وهي الكرم والمكافأة على المعروف الذي قدمته الوحوش له، والتي كانت بمقام الأهل، وهم يستحقون أن أكافئهم بهذه الطرائد التي اصطادها لهم، وإن كان أسبقهم للطرائد فهو لسبب كرمه وتفضله عليهم، وكل هذا حديث شخصي عن النفس .

يقول عادل فريحات عن القصيدة : " وإذا كان الشاعر هنا قد اختار من بين الأهل ذئبا وضبعا (سيداً وعرفاء)، فإننا سنراه بعد قليل، يعود لذكر الذئب في لوحة واسعة الظلال . وكذلك سيذكر الضبع مرة ثانية، في البيت (51) بلفظ (السِّمع)، وفي البيت (59) بلفظ (الفرعل) فيبدو البيت الخامس وكأنه يؤسس لتناسب أبيات أخرى منه تعيد المتلقي إلى ما سبق أن سمعه من قبل، أما التكرار في القصيدة فليس من علامات تلاحم النص بمقدار ما هو إشارة بأن هذا التكرار يشعرنا بالرتابة التي يشعر بها الشاعر ؛ حتى أنه لا يجد ما يقوله، لأن كره

القبيلة له جعله يشعر بالصدمة، كذلك ضيق دائرة الحياة بعد اتساعها إذ بعد أن كان يتحدث مع أبناء قبيلته، ويعنى بكل ما يخصهم أصبح بدون مجتمع، بل يصنع لنفسه أملا بجعل الطبيعة وما فيها من وحوش هي أهله وقبيلته، وبالتالي فالحديث المتسع ضاق واقتصر على أشياء بسيطة وهي علاقته بالوحوش .

وفي القصيدة نفسها تحديد الزمان الذي عايش فيه قسوة الظروف مابين شتاء قارس البرد ومخيف الليل، وبين أيام الصيف الشديدة الحر :

وليلة نحس يصطلي القوس ربها وأقطعه اللاتي بها يتبتل

دعست على غطش وبغش وصحبتي سعار وإرزيز ووجر وأفكل

ويوم من الشعرى يذوب لوابه أفاعيه في رمضائه تتململ

والقصيدة تمتلئ بالألفاظ التي تشعر بعلو الذات لدى الشاعر واعتداده بفضائله وكانت رؤيته لقومه الذي رحل عنهم، وقومه من الوحوش من خلال ذلك الاعتداد والشعور بأنه الأفضل بينهم، والمتفرد بصفات جعلته ثائرا على قومه بني أمه .

وأخيرا فالذاتية، هي صورة نسبية متغيرة حسب الإدراك والخيارات التي تحددها الذات، هذا بالنسبة للذاتية، أما بالنسبة إلى الموضوعية فهي مجرد مواقف واعتبارات شخصية ذاتية لا أكثر.

إذن إذا كنا نعتبر دراسة الظاهرة الإنسانية ومقارنتها مع الظاهرة الطبيعية أنتجت دراسة ذاتية، فهذه الدِّراسة هي من أعطى البرهان لمدرسة الموضوعيين، وكنتيجة واضحة فتأثير القوانين في الطبيعة هي حقائق موضوعية غير خاضعة لمقدرة الذات ورغباتها أو إراداتها .

كما أن هذه القوانيين لها نفس التأثير على عمل العقل لأنه جزء منها، إذاً الأفكار العقلية هي حقائق ثابتة وصادقة وغير مشكوك فيها.

فإذا كانت الذاتية متعلقة بجوهر الذات عن طريق الهوية أو الشخصية، التي تستقي أوصافها من تأثير الشعور أو التفكير عن طريق العقل الذي له السيادة الحرة التامة بدون أي تقيد، فالموضوعية هي المعرفة المتعلقة بالمظهر الخارجي للوجود من قبل الذات، تدرك عن طريق الحواس وتخضع للتجربة وهي مستقلة عن إرادة أو معرفة أو ميول الإنسان لها.

هوامش البحث

[1] - *الشعراء الصعاليك* في العصر الجاهلي ص 155.

2 - الذاتية (اسم) مؤنث منسوب إلى ذات، ذاتية : نزعة ترمي إلى تحكيم الذات في الحكم أو تكوين الآراء والانطباعات، عكسها الموضوعية ، انظر : مادة " ذات " معجم المعاني الجامع - معجم عربي عربي .

موضوعية: (مفرد) اسم مؤنث منسوب إلى موضوع " الآراء الموضوعية التي لها قيمتها "، مصدر صناعي من موضوع : حيادية وعدم تحيز " موضوعية " حكم : خال من أي تحيز خاص، انظر : مادة " " موضوعية " معجم اللغة العربية المعاصر .

3- ينظر: *الشعراء الصعاليك* في العصر الجاهلي ص 24، وما بعدها.

4- تأبط شرا، ديوانه، جمع وتحقيق وشرح، علي ذو الفقار شاكر، ص77

5- د. حسن جعفر الدين : *الشعراء الصعاليك* في العصر الجاهلي ج 2، ص 40 .

6- التبريزي، شرح الحماسة أبي تمام 2/ص9

7- ديوانه، ص198

8- د. علي سليمان : الشعر الجاهلي وأثره في تغيير الواقع ، ص 40، 89:87

9 - ديوانه ص 87:86

10-السابق ص48.

11- ديوانه ص 39.

12- السابق ص 75

13- ديوانه ص 68

14- السابق ص 68

15- السابق ص 46

16- *الشعراء الصعاليك* في العصر الجاهلي ص 233

17- ديوانه ص 135

18- ديوانه ص 94:93

19- الأغاني 8/13

20- *الشعراء الصعاليك* في العصر الجاهلي ص 229

21- الأغاني 10/13

22- السابق 357/20

23- موسوعة الشعراء الصعاليك 11/2

24- الأغاني 357/20

25- ديوان الحماسة 24/2

26- الأغاني 151/21

27- ينظر: موسوعة الشعراء الصعاليك 43/2

28- ديوانه ص 33

29- *الشعراء الصعاليك* في العصر الجاهلي ص 338

30- عادل فريحات " النص الجاهلي بين تلقيين : قديم وحديث – لامية الشنفرى نموذجا، مجلة جذور ج4، ص 177:176.

31- السابق ص 178.

مصادر البحث ومراجعه

1- تأبط شرا : ديوانه، جمع وتحقيق علي ذو الفقار شاكر، *دار* الغرب *الإسلامي* – بيروت ١٤٠٤ هـ .

2- د. حسن جعفر نور الدين : موسوعة الشعراء الصعاليك، من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث، رشاد برس، للطباعة والنشر، بيروت 2007م - 1428هـ .

3- التبريزي :شرح ديوان الحماسة *تحقيق* : *عبد السلام هارون*، دار المعارف،القاهرة 1963م.

4- عروة بن الورد : ديوانه، الدار العالمية، بيروت ط1 1993م .

5- الأصفهاني: الأغاني، *دار* المعارف - القاهرة - 1950م.

6- د. علي سليمان : الشعر الجاهلي وأثره في تغيير الواقع .. قراءة في اتجاهات الشعر المعارض، وزارة الثقافة، دمشق 2000م .

7- الشنفرى : لامية العرب، شرح وتحقيق: د. عبد الحليم حفني، مكتبة الآداب، القاهرة ط1 1429ه.

8- ابن منظور : لسان العرب، دار المعارف، القاهرة 2008م.

9- التبريزي: شرح حماسة أبي تمام، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت 2000م.

10- د. *يوسف خليف : الشعراء الصعاليك* في العصر الجاهلي، *دار* المعارف، القاهرة، ط4 1986م.